مجلة الرائد

العدد : ١٩٣ الموافق في جمادى الأولى ١٤١٨ هجري ١٩٩٧/١٠ ميلادي

عنوان المقال : في منهج الحوار وفي العلاقة بين الغرب والمسلمين ❋	بقلم : منير شفيق

يواجه الفقه الإسلامي والفكر الإسلامي وضعاً جديداً لم يسبق لهما أن واجهاه في عهود دولة الخلافة ذات السيادة العالمية ، والتي عرفت ازدهاراً عظيماً في ميادين الفقه والعلوم والفكر.

ومن ثمّ فإن كثيراً من الأحكام الفقهية والآراء الفكرية ، التي سادت في تلك العهود ، لم يعد من الممكن للمسلمين تطبيقها إلا في حالات تكاد تكون نادرة . فعلى سبيل المثال : حكم الهجرة من دار الشرك أو الكفر إلى دار الإسلام .

بل يمكن القول أن ما نواجهه اليوم من إشكالات يحمل درجة من الخصوصية والاستثنائية لم يسبق لها مثيل ، حتى فيما بين الحالات التي تبدو متشابهة . فعلى سبيل المثال : سمة الدولة الإسلامية الراهنة تختلف عن سمة دولة الخلافة . ومن ثمّ لا مفر من أن يُجتهد في أحكام فقهية تناسبها ، كما تناسب الظرف السائد والوضع العام للأمة .

أما إذا جئنا لبحث العلاقة بين المسلمين والغرب ، أو بين المسلمين وغير المسلمين عموماً ، لا سيما في البلدان التي يشكل فيها المسلمون أقلية فسنجد أنفسنا أمام سلسلة معقدة من الإشكالات . بل سنجد الإشكال الواحد منها ذا وجوه متعددة ، وكل وجه حمال أوجه .

وإذا جاز أن نتلمس بعضاً من تلك الإشكالات دون أن نستنفذها كلها في هذه العجالة ، فيمكن الإشارة إلى :

أولاً : يتسم الغرب ، لا سيما دوله الكبرى ، بحالة سيطرة عالمية شبه مطلقة على النظام العالمي والاقتصاد العالمي ، ناهيك عن المجالات المعرفية والتقنية والإعلامية والثقافية والفنية . فهنا سيطرة سياسية وعسكرية واقتصادية وثقافية وإعلامية على الشعوب الأخرى ، لا سيما شعوبنا الإسلامية ، وإلى جانبها أو من ضمنها ثمة تفوق في مجال القوة ومصادرها المادية : من أسلحة وجيوش وتقنيات وعلوم وإعلام .

وهذا يعني أن العلاقة غير متكافئة ، ومن ثمّ فإن كل حوار سيبدأ من اللاتكافؤ ، إن لم يبدأ من خلال الصراع ويمر عبره . فالشعوب الإسلامية خاضت ألواناً من الصراع الطويل المرير والمتعدد الأوجه من أجل التحرر من ربقة الاستعمار المباشر ، الذي مارسته بعض الدول الغربية عليها . فالحوار

مع الدولة الاستعمارية ما كان يمكن أن يمر إلا عبر الصراع .

على أن نيل أكثر الدول العربية استقلالها ، وسعيها لبناء علاقات إيجابية بالدول الغربية ، وفي مقدمتها تلك التي استعمرتها سابقاً ، لم يسفرا عن تغيير جذري للعلاقة السابقة .

فقد استمرت الدول الغربية بزعامة الولايات المتحدة ، في هذه المرحلة ، بالمحافظة على جوهر العلاقاة السابقة ، أي : علاقة الدول الاستعمارية بالمستعمرات ، مع تغيير مستمر في الأشكال التي يتحقق من خلالها ذلك الجوهر . ومن ثمّ أحبطت أحلام العلاقات الإيجابية التي راودت قادة الاستقلال بالغرب ، لتجد الدول نفسها ، مرة أخرى ، تعاني من التبعية . وتواجه أمام كل قضية بالإملاء من جانب الطرف المتفوق . أي : كان على الحوار أن يعبر مرة أخرى من خلال ألوان جديدة معقدة من الصراع ، لأن علاقات تقوم على التبعية والإملاء هي ليست العلاقات المرجوة ، أو التي يمكن أن تدوم ، أو تكون مثمرة ومعبرة عن خير الجميع .

ولهذا يمكن الوصول إلى خلاصة مؤداها : أن العلاقة بين الدول الإسلامية والدول المسيطرة في الغرب ما زالت محكومة برؤية أحادية الجانب تفرضها الدول المسيطرة على تلك العلاقة . أما ما تفعله الدول الإسلامية فهي تقديم التنازلات تلو التنازلات ، والقبول بعلاقات غير متكافئة ، لكن دون أن يكون هنالك حدود لما تطلبه منها الدول المسيطرة من تنازلات ، ويكفي مثلاً صارخاً على ذلك قضية فلسطين ، أو مسألة القدس ، أو احتلال الجولان وجنوبي لبنان ، أو مشروع بيريز للشرق الأوسط ، أي مشروع إقامة نظام شرق أوسطي تحت الهيمنة الإسرائيلية .

ومن هنا وجدت الدول الإسلامية عموماً والعربية منها على الخصوص ، والمنخرطة في عملية التسوية على أخص الخصوص ، نفسها مضطرة لخوض ألوان من الصراع لكي لا يهبط سقف التنازلات أكثر فأكثر بلا حدود ، حتى لا يتبقى للطرف الآخر أي حق أو أية مصلحة ، أو حتى بقية من ماء الوجه . ولهذا تتسم العلاقة الآن بطلب ملح من الجانب الإسلامي والعربي لفتح حوار إيجابي يحقق الحد الأدنى من الحقوق والمصالح والعدالة له ، بينما يُرفض ذلك من الجانب المسيطر رفضاً ، ويأبى إلا الإملاء حتى حدوده القصوى .

بكلمة : إن الحوار الآن مأزوم بين الغرب - بزعامة أمريكا - والمسلمين . إنه مأزوم بداية على مستوى الدول الإسلامية والعربية البعيدة كل البعد عن اتهامها بالأصولية ، أو بالقومية التحررية ، والقريبة كل القرب من التغريب : سياسة وأيدولوجية وثقافة وإعلاماً ، والحريصة كل الحرص على بناء

علاقات بالغرب ولو على درجة عالية من الإجحاف بحقوقها ومصالحها .

وبالمناسبة ، إن وجهاً من الأوجه التي نرمي إلى إبرازها هو أنه مأزوم على مستوى النُّخب ، على اختلافها ، فضلاً عن المستويات الشعبية والإنسان العادي. هذه الملاحظة هي : **دفع المسؤولية عن الإسلاميين** عموماً في كل ما يتعلق بمسائل الحوار مع الغرب حين لا ينشأ حوار أو حين يفشل حوار . فالكرة هي في ملعب الغرب . ولهذا من المهم جداً أن يكون الطرف الإسلامي مدعواً للحوار مع الغرب . وأن يكون داعياً لذاك الحوار . وألا يكون معرقلاً له . وإنما أن يكون له مسهلاً . ففي هذا الموقف انسجام مع أصل إسلامي يطلب من المسلم أن يبادر في الدعوة إلى الحوار ، وأن يخوض فيه بالتي هي أحسن ، كما أن ثمة كسباً سياسياً حين يكون الموقف العادل إلى جانبك ، ويكون الطرف الآخر هو الذي يريد العداوة والتأزيم ويفرض المواجهات . كما أن في هذه المواقف تفهماً عميقاً لأوضاع عالمنا وموازين قواه وما يحتاج إليه من حلول لإشكالاته ووسائل لتحقيق تلك الحلول .

ثانياً : في مفهوم الحوار

يُظن أن الحوار يعني : التنازل مسبقاً ، أو لاحقاً ، عن الثوابت والمبادئ بينما لا يتضمن ذلك بداية أو نهاية . لأن التنازل عن المبادئ والثوابت يعني توقيع شروط الاستسلام من قبل مهزوم في الحرب ، وقد سلم بهزيمته النهائية . الأمر الذي هو نقيض للحوار المستهدف أن يدخل طرفان في جدال أو نقاش حول ما هم يختلفان فيه بديلاً من الحرب والفرض بالقوة والإكراه . وإن كان من غير الصحيح أن ثمة حواراً لا يرتكز بصورة مباشرة ، أو غير مباشرة ، إلى الحرب وميزان القوى . على أن العقلانية هنا تسعى لأن يحقق الحوار جزءاً من الأهداف بدلاً من تحقيق أكثر منها عبر الحرب والدماء . لأن الخسائر في الحرب ، حتى لو كللت بنجاح كبير أو صغير ، قد تكون باهظة إلى حد ما تحقق زيادة على ما يمكن أن يحققه الحوار .

على أن ما يراد بالحوار بين المسلمين والغرب الآن هو ليس حواراً في العقائد والأهداف والمبادئ ، وإنما هو في البحث عن تعايش وعن تعاون لتحقيق مصالح متبادلة ، وعن تنظيم للصراع والخلافيات دون سقف العنف والعداوة والقطيعة ، وإذا ما تحقق ذلك فإن أجواء أفضل ستتولد لمن يريد أن يفتح حواراً في العقيدة والمبادئ أو أن يمارس دعوته . أما الذين يقدمون هذه على الحوار من أجل التعايش والتعاون وعلاقات إيجابية فكأنهم يوصدون الأبواب بأيديهم أمام دعوتهم . لأن الدعوة لا تصل القلوب حين تكون الأجواء مسمومة والعداوة والعصبية والحرب الكلامية أسياد

الموقف .

والآن : إذا قُبل هذا التحديد لمفهوم الحوار وغاياته ، فإنه يعني - فيما يعنيه - القبول بالآخر كما هو ، واحترام خياراته ، دون الموافقة عليها ، والسعي للتعايش وإياه والتعاون معه حيثما أمكن التعاون ، وتجنب نقاط الاشتعال والعداوة والعنف والقهر . وهو موقف يجب أن يراعى ، في عصرنا الراهن ، أشد مراعاة سواء أكانت الحالة الإسلامية غالبة في مجتمعها أم كانت أقلية في مجتمعات غير إسلامية . لأن من سمات عالمنا أنه أصبح كما يسميه البعض قرية صغيرة ، ومن ثَمّ ما من جزء إلا ويتأثر سلباً وإيجاباً بما يجري في أي جزء آخر .

الأمر الذي يفترض أن يحسب الأمر على أساس الموقف العام ، والمصلحة العامة ، وليس من زاوية جزئية محلية ضيقة ، كما أن عالمنا ضجر من القوى التي تطبق ازدواجية في المعايير . ويتطلع إلى مشروع حضاري يحمله قوم يعدلون ولا يزدوجون في معاييرهم .

أريد من هذا المدخل أن يساعد عند مناقشة وضع المسلمين الذين يعيشون في الغرب . ومن ثم بحث إشكالات علاقاتهم بالمجتمعات والحكومات الغربية .

لعل من الضروري بداية التفريق بين الإشكالات التي يواجهها المهاجرون أو المواطنون من أصول عربية أو إسلامية ، أو أفريقية أو أسيوية ، من قبل المجتمعات التي يعيشون بين ظهرانيها ، أو من جهة سياسات الدولة إزاءهم ، لا سيما في هذه الظروف التي لم تعد الأيدي العاملة الأجنبية مطلوبة كما كانت من قبل ، بل أصبح ينظر إلى لمهاجرين في بعض الحالات بأنهم يفاقمون أزمة البطالة ويشكلون عبئاً على الخدمات الاجتماعية والبنى التحتية ، وبين ، من جهة أخرى ، الإشكالات التي يواجهها المهاجرون الملتزمون بمسلكهم وحياتهم بشروط دينهم ، فضلاً عن اهتمام بعضهم بالدعوة أو بالشأن السياسي الذي يهم أوطانهم ، ولا سيما قضية فلسطين وقضية القدس أو الأراضي العربية الأخرى المحتلة ، أو ما يثار من تحريض ضد الإسلام والإسلاميين ، ومثلها الاتهام بالتعصب أو الإرهاب وغير ذلك بكثير .

إشكالات الجالية

بالنسبة إلى الإشكالات الأولى فإن أطرافاً كثيرة من ممثلي الجالية المحددة ، بما في ذلك الدولة المتجذرة فيها ، ذوو علاقة بالموضوع ، ومن ثم لا بد من إيجاد نهج يوحد المواقف عند النقاط الأساسية ، أي : تهم مجمل المهاجرين المعنيين . وهذا ما يتطلب من القوى والأفراد والجمعيات الأكثر

وعياً أن تبادر إلى اتباع سياسات لتوحيد الموقف وطرح النقاط المشتركة التي تهم الجميع ، دون أن تقحم الخلافيات الداخلية فتطغى . لأن ثمة مصلحة مشتركة للجميع في حل الإشكالات التي تواجه الجالية عموماً ، لا سيما فيما يتعلق بالقوانين التي يمكن أن تسن ضدها ، أو ما يمكن أن تتعرض له من مضايقات أو تمييز أو تضييق أو اعتداءات .

وهذه كلها طريقها الحوار ، ثم الحوار ، ثم الحوار ، سواء أكان داخل صفوف المهاجرين لتوحيد المواقف ومنع العداوات والصراعات الداخلية الضارة من كل الأوجه ، أم كان مع المجتمع المضيف من خلال المسلك العام ، أو عبر الحوار مع ممثليه ، أو كان مع السلطات المعنية .

هنا أيضاً لا بد من إبداء إيجابية عالية في الدعوة للحوار ، وفي إدارته ، وفي تحديد النقاط المشتركة ، وفي تجنب نقاط الاشتعال والمضرة والخلاف . وهو إذا ما نجح فسيعود بالخير على البلد المضيف وأهله ودولته ، كما يعود بالخير على مجموع المهاجرين ، ومن ثم يترك أثره الإيجابي على الدعوة نفسها ، كما على بناء حياة داخلية ملتزمة إسلامياً ، متعايشة مع الحالة السائدة غير متصادمة بها .

إشكالات تواجه الملتزمين إسلامياً

أما على المستوى الثاني ؛ فيمس العلاقات بالمجتمع والدولةالمعنية ، بالنسبة إلى الملتزمين إسلامياً في مسلكهم وحياتهم ، كما بالنسبة إلى القوة الفاعلة سياسياً أو اجتماعياً أو دعوياً وذات مرجعية إسلامية .

هنا تزداد أهمية الإيجابية بالدعوة إلى الحوار الذي يستهدف التعايش والتعاون ، وسحب فتيل البغضاء والعداوة والتأزيم . وهو ما يحتاج إلى الإصرار عليه مهما وصل الاستفزاز من جانب بعض الأطراف المقابلة التي تستهدف دفع بعض القوى إلى طريق ردود الأفعال المدمرة والمتهورة والمسيئة ، وهو ما يتطلب التحلي بالآيات القرآنية التي تدعو إلى الصبر وكظم الغيظ والحكمة ، وعدم الاستجابة للاستفزاز ، والتحلي بالمواقف والمسالك التي تعلي من شأن المسلم وتنقل الصراع من ميدان الحرب إلى ميدان الحوار ، ومن ميدان الحمق والجهالة إلى ميدان الحكمة والعقل .

ولعل حسن توجيه الخطاب والحرص على عدم الازدواجية فيه ، وقطع السبيل على كل موقف أو مسلك يغذي تهم التعصب ، أو الانعزالية أو الإرهاب ، أو الابتعاد عن العصر ، يخدمان الإسلام والمصلحة العامة للمسلمين .

على أن من المهم أن يكون المنطلق أساساً حين تصبح مواطناً أو مقيماً هو الالتزام بتعهدك في احترام قوانين البلد الذي هاجرت إليه ، واحترام عادات أهله وتقاليدهم ، فكل وثيقة وقعت عليها وأنت تطلب الهجرة ، أو الإقامة أوالمواطنة ، هي بمثابة العهد { **إن العهد كان مسؤولا** } بل عندما تصبح مواطناً فإن عليك أن تنخرط في الحياة العامة ، وتتبنى سياسات من مرجعية إسلامية تحقق خيراً ومصلحة الناس والدولة . ولعل أولى درجات ما يجب أن تتقيد به هو أن تلتزم الحياد حين لا تستطيع أن تحدد موقفاً إيجابياً ، لكن في كل الحالات يجب أن ترفض الأفكار والسياسات التي قد تحولك إلى ما يشبه الطابور الخامس .

أما أعلى درجات الموقف الأفضل فهو : أن تتمكن من خلال مرجعيتك الإسلامية أن تتقدم باقتراحات وسياسات إذا ما نفذت تعود بالخير على البلد الذي أصبحت من مواطنيه .

إن نظرة متفحصة لوضع المسلمين في المجتمعات الغربية ، وما يحيط بهم من مؤامرات لتهجيرهم أو لتأزيم حياتهم واضطهادهم ، تفترض أن تعالج الإشكالات المختلفة التي تعترض حياتهم بأعلى درجات الفهم لها وللواقع المحيط بها ، وعندئذ يمكن للإسلام فقهاً وفكراً أن يعطي الإجابات الصحيحة عن مختلف الأسئلة . المهم : حسن قراءة ما يعترض من إشكالات وحسن قراءة الواقع المحلي في البلد المعني ، وحسن قراءة الواقع العالمي وواقع البلاد العربية والإسلامية عموماً . وإذا ما تحقق ذلك فستثبت المرجعية الإسلامية أنها أفضل ما يعطي الإجابات الصحيحة عن أسئلة عصرنا المختلفة .

❋ نص المحاضرة التي ألقاها الأستاذ منير شفيق في الملتقى السنوي الثاني والعشرين